أبو العتاهية

للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى

أبو العتاهية والرشيد :

ليس يعنينا من حياة الشاعر فى عهد موسى الهادى إلا ما أظهره الأول من قصر النظر ونكران الجميل ، فقد كان الشاعر أثناء حكم المهدى صنيعة من صنائع هارون الرشيد ، وكان ذلك بالطبع يغضب الهادى المنافسة التى كانت بين الأخوين . ولم يكد الأخير يلى الحكم حتى أقبل عليه الشاعر إقبال المنقطع إليه، وأعرض عن هارون بل آذاه إيذاء مريراً لا ضرورة إليه ولامبرر له.. انظر إليه كيف يعرض بهارون فى أبيات قالها مهنئاً الهادى بمولود : —

أكثر موسى غيظ حساده ... وزين الأرض بأولاده
وجاءنا من صلبه سيد ... أصيد فى تقطيع أجداده
كأنى بعد قليل به ... بين موالية وقواده
فى محفل تخفق راياته ... قد طبق الأرض بأجناده

من ذلك الحاسد الذى أكثر موسى غيظه ؟ أليس ذلك الحاسد هو الرشيد ؟ إننا لانشك فى أن ذلك هو مراد الشاعر؛ إذ أن نزاعاً مريراً كان قائماً إذ ذاك بين الرشيد والهادى بسبب محاولة الأخير تولية ابنه جعفراً العهد بدلا من هارون ولى العهد الشرعى

فليس عجيباً والحال كذلك أن يبادر الرشيد بإرسال أبى العتاهية إلى السجن عقب تولية الخلافة عقاباً له على ما أظهره من نسيان للجميل وخروج على مقتضيات اللياقة . بل العجيب حقا أن يذكر صاحب الأغانى أن الرشيد إنما أرسل الشاعر إلى السجن لامتناع الأخير عن إنشاد شئ من الشعر له ، وما امتنع فيما يرويه الأغانى إلا حفظاً لعهد الهادى وضناً بشعره أن ينشد لأحد من بعده ، وكيف يصبر الرشيد على كل هذا العبث ، بل كيف ينسى للشاعر تعريضه به فى شعره وهو الذى قتل أبا عصمة رئيس حرس جعفر بن الهادى لقوله له يوماً وقد قابل جعفراً على أحد جسور بغداد :— « انتظر حتى يمر ولى العهد »

ومهما يكن من أسباب تلك الجفوة القصيرة فقد عادت الحال بين الرشيد والشاعر إلى ما كانت عليه من قبل ، وننسى الخليفة أو تناسى ما كان من سوء أدب الشاعر وقلة وفائه . والحق أن هارون كان مضطراً إلى مثل ذلك التغافل والتجاوز عن سيئات الشاعر إذ لم يكن له غنى عنه . فهارون مولع بالفتيات الحسان يحادثهن ويختلط بهن ويسمع إليهن ينشدن الشعر ويغنينه أو يعزفن على نغماته، وما أكثر ما يجيش فى صدر الخليفة من عواطف أو يعتلج بباله من خواطر نتيجة لاختلاطه بأولئك الجوارى الحسان . وما أشوقه إلى أن يرى خواطره وقد ترجمت فى شعر عذب وصارت أغانى وأناشيد تصدح بها جواريه الفائنات . يروى لنا التاريخ — وما أقل ما يروى بجانب مايهمل — أن الرشيد ربما أنشد البيت أو البيتين محاولا التعبير عن فكرة أو خاطر خطر له ثم يكل ذهنه ، وهنالك يلتفت إلى من حوله من الشعراء عليهم يسعفونه بإتمام ما بدأ . ويروى التاريخ أيضاً أنه ربما أعجب الرشيد بالبيت أو البيتين من الشعر وشرب عليهما وطرب وتمنى أن لو وجد من الشعراء من يلحق بهما بيتاً أو أكثر حتى يطول طربه وسروره ، ومن أولى الناس بالجلوس إلى جانب الخليفة وإسعافه فى مثل تلك الحال من أبى العتاهية الذى يقول فيه بشار بن برد وقد عجب من سرعة خاطره وسهولة قول الشعر عليه : « أشعر الناس مخنث أهل بغداد الذى يتناول شعره من كمه »

على أن شيئاً آخر كان يزيد فى تعلق الرشيد بأبى العتاهية وشغفه بشعره وذلك هو حبه لعتبة ، فقد خلق ذلك الحب بين الشاعر والخليفة نوعاً من المشاركة الوجدانية حيث كانا يجتمعان فيشكو كل منهما ما يلاقى فى سبيل غرامه . ولعل الأبيات التالية تصور لنا أدق تصوير ما كان بينهما من علاقة فى ذلك الشأن ، وقد بلغ من تذوق الخليفة لتلك الأبيات وإحساسه بصدق معانيها أن أمر بإحضار الشاعر من سجنه وطلب إليه أن يعيد إنشادها

على مسامعه ثم أمر له بخمسين ألف درهم على أثر سماعها ، وإليك الأبيات : —

يا عتب سيدتى أمالك دين ... حتى متى قلبى لديك رهين
وأنا القليل لكل ما حملتنى ... وأنا الشقى البائس المسكين
وأنا الفداة لكل بالك مسعد ... ولكل صب صاحب وخدين
لا بأس إن لذاك عندى راحة ... للصب أن يلقى الحزين حزين

أحس أبو العتاهية حاجة الرشيد الشديدة إليه فداخله شئ من الغرور والبطر ، ولم يعد يكفيه أن صار جليس الخليفة وشاعره الأول ، وفى ذلك مافيه من تكريم ، ولا أن يتناول كل عام خمسين ألف درهم عدا ما يتفضل به الخليفة من منح وعطايا فى شتى المناسبات ، بل أخذ يلح عليه فى أن يزوجه من عتبة ، ولم لا ؟ لقد كانت عتبة فيما مضى تعتذر عن الزواج بأنها كانت تخشى غضب المهدى أو زوجه .. أما الآن وقد ماتا وأصبح أمرها بيد هارون فما الذى يقف فى سبيل زواجه منها ؟ ولم يكن الرشيد متحمساً لذلك الزواج ، ولعله كان يعرف من أمر عتبة الشئ الكثير ، ويعلم مقدماً أنها لن توافق عليه ، ومن ثم أخذ يكسب الوقت بإعطائه ميعاداً إثر ميعاد ، واستمرت الحال على ذلك عشر سنوات كاملة . عشر سنوات ملأت الشاعر نقمة على ذلك الخليفة الذى يشرب ويطرب على ما أنشده الشاعر فى عتبة من أشعار أودعها ذوب قلبه وعصارة نفسه ، ثم لا يتحرك لإنقاذه أو يخف لتخفيف آلامه . ثم يروى المؤرخون أن الرشيد زار عتبة يوما من الأيام وفاتحها فى شأن الزواج من أبى العتاهية فرفضت ، فعاد الخليفة أدراجه واعتبر الأمر منتهيا . وما كان الشاعر من السذاجة بحيث يعتقد أن هارون مع ما كان عليه من بطش وجبروت قد عجز عن أن يحمل عتبة على الزواج منه لو أنه أخذ الأمر بشئ من الحزم والجد . وهكذا وقر فى نفس الشاعر أن عشر سنوات كاملة كلها إخلاص وتفان فى خدمة الرشيد ما كانت لتوجب للشاعر عليه وقفة واحدة حازمة ، وقفة لو أنها تمت لغيرت من حياة الشاعر وذهبت بكل ما كان يعانيه من بؤس وحرمان ، وما يحسه من ضمة وهوان . ومن الحق أن يقال إن عتبة لم تكن فى نظر الشاعر مجرد فتاة ينالها أو يفشل فى الحصول عليها ، وما كان أهون خطبها لو كانت كذلك ، فما أكثر أولئك الذين يحبون ويفشلون ثم لا يغير ذلك الفشل من مجرى حياتهم أو يضع من أقدارهم أو يسئ علاقتهم بغيرهم ، ولكن لشاعرنا ظروفا خاصة .. فقد كان فشله فى الزواج من عتبة الدليل الواقعى على صحة ما كان يهجس فى نفسه وما يتحدث به أعداؤه ومنافسوه من أنه وضيع بحكم مولده ونشأته .. وأن أى نجاح أدبى أو ثراء مادى لن يغير من تلك الحقيقة شيئا .. ومكمن ذلك المعنى فى نفسه إشارة عتبة أثناء رفضها الزواج منه إلى نشأته المتواضعة . ومن ثم ود الشاعر لو يبدد تلك الهواجس التى كانت تلاحقه وأن يكتسب ثقة بنفسه عن طريق الزواج من عتبة

ونعود إلى هارون فنرى الشاعر وقد حل مقامه عنده وغناءه له ، وتمنى أن لو وجد بابا غير بابه يذهب إليه ، وقد سنحت له الفرصة سنة ثمانين ومائة للهجرة ، فقد تولى الفضل بن الربيع حجابة الرشيد فى تلك السنة ، وأخذ يضع الخطة لتقويض سلطة البرامكة ، وسلاحه الأول فى ذلك الدس والوقيعة ، ذلك السلاح الفتاك الذى استعمله والده بنجاح ضد منافسه أبى عبيدالله وزير المهدى . ولكن أنى له ذلك وهارون وجعفر البرمكى روحان فى بدن واحد(١) ومجالس المغادمة والغناء تجمع بينهما من يوم لآخر ، فإذا ما شربا وطربا تكاشفا حتى لا يكاد يخفى أحدهما عن أخيه شيئاً . فكيف يكون الحال لو كذب الفضل كذبة أو افترى فرية وألقى بها فى أذن الرشيد فما كتشفها جعفر ولما تمهل محملها فى نفسه بعد ؟

لابد إذن لضمان نجاح خطة الفضل والتأكد من سريان سمومه فى ذهن الرشيد من وضع حد لتلك المجالس الصاخبة التى تجمع بينهما ، فلينتزع الفضل من مجلسهما إذن أبا العتاهية حتى لا يشيع البهجة والمرح فيه بما يمدهما به من شعر الغناء ، بل ولتوجد الوسيلة للتشهير بتلك المجالس ، وليذكر الناس بما فيها من مخالفة للدين ، ولتوضع الأشعار للتنفير منها وممن يرتادها من الناس

ومن أولى بأداء تلك المهمة من أبى العتاهية فهو ساخط على الرشيد بل ساخط على الحياة والأحياء جميعا ، وهو رجل

(١) كان هارون وجعفرا يلبسان فى بعض مجالسهما ثوباً واحداً ذا فتحتين للرقبة

حريص يحب المال ويسعى إليه ولا يبالى بما يركبه من أهوال فى سبيل الحصول عليه ، وهو قبل كل ذلك شاعر مطبوع قادر على قول الشعر فى كل فن وبكل مناسبة . فاتح الفضل أبا العتاهية فى ذلك الأمر ، وأيأسه من هارون ومن عتبة ووعده الحماية من كل سوء أو مكروه يصيبه بسبب إعراضه عن الرشيد وهجره لمجالســـه ، ووعده إلى جانب ذلك مالا كثيراً إن أنصت إليه واستجاب لرجائه . وانضمت زبيدة إلى الفضل ، فهى حريصة على وضع حد لمجالس اللهو والطرب التى كان يجالسها الرشيد لأسباب لا تقل وجاهة عن تلك الأسباب التى حملت الفضل على بغضها والعمل على فضها ، إذ أن تلك المجالس تجمع بين الرشيد والجوارى الحسان من مغنيات وراقصات وعازفات ، وفى ذلك ما فيه من استهواء للرشيد وشغل له عن زوجه وابنة عمه زبيدة

وما إن سمع الشاعر ذلك العرض حتى قرر أن يقف من الرشيد موقفاً حازماً لا تردد فيه ولا هوادة ، فأخبر الرشيد أنه لن يقول شعرا فى الحب مالم يخط خطوة عملية فى شأن تزويجه من عتبة التى تلهمه ذلك الشعر

وتعقد الموقف حين ثارت ثائرة الرشيد .. فأمر بإرسال أبي العتاهية إلى السجن وأقسم ألا يخرجه منه حتى يقول شعرا . وهنا أقسم الشاعر أيضاً أنه لن يتكلم سنة إلا بالقرآن أو بـ لا إله إلا الله ، وتلك حيلة بارعة من الشاعر .. فهو يعطى الخليفة سنة كاملة كى يصحح موقفه فيها فإن رجع لصوابه وزوجه من عتبة عاد إلى حظيرته .. وإن أبى إلا إهمال الشاعر والاستهانة بشأنه انضم إلى معسكر الفضل وزبيدة غير آسف ولا متردد ، ولم ينس الشاعر أن يكتب إلى الخليفة من سجنه بأشعار ذات مغزى واضح ، أنظر إليه وهو يجادل الرشيد جدالا منطقياً ويعجب له كيف يطلب إليه أن يقول شعراً فى الحب وقد حرمه من عتبة التى كانت تلهمه ذلك الشعر :—

وكلفتنى ما حلت بينى وبينه وقلت سأبغى ما تحب وما ترضى
فلو كان لى قلبان كلفت واحداً هواك وكلفت الخلى لما يهوى

ثم انظر إليه وهو يذكر الرشيد بمواعيده التى لا تنقضى إلى غاية : —

يا رشيد الأمر أرشدنى إلى وجه نجحى لا عدمت الرشدا
وابلائى من دعاوى أمل كلما قلت تدانى بعدا
وأمنى بغد بعد غد ينفد العمر ولم أأت غدا

ومضت السنة ولم يستجب الرشيد أو قل لم تستجب عتبة لدعاء الشاعر الذى لم يجد بدا من الانضمام إلى المعسكر الآخر ، متخذاً لنفسه أسلوباً جديداً فى الحياة ، بقى بأغراض زبيدة والفضل ويقضى حاجات فى نفسه هو ، وتلك الحاجات هى التنفيس عن عواطفه المكبوتة ، والتعبير عما يكنه للحياة والأحياء من سخط ونقمة

وبعد فقد بينا هنا ما كان للفضل وزبيدة من أثر فى ذلك الانقلاب الذى طرأ على الشاعر سنة ثمانين ومائة للهجرة ، وسنكشف فى المقال التالى بعون الله تعالى عما لدينا من أدلة تثبت أن اتفاقاً كهذا قد تم بين الفضل وزبيدة من جهة ، وأبى العتاهية من جهة أخرى

دكتور محمد الكفراوى

زينب

ملحمة من الشعر الوجدانى

للشاعر العراقى

الأستاذ

عبد القادر رشيد الناصرى

تزفها المطابع قريباً